سيدي بوزيد

حكاية ثورة يرويها أهلها

شهادة الأمين بوعزيزي وعبد السلام حيدوري

كارم يحيى



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسـم الكتاب : سيدي بوزيد
المـؤلف : كارم يحيى
رقـم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٢



Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى كل مفجري و وقود الثورات منذ زمن السادة والعبيد.
أولئك الحاضرون بالدم في مواجهة النار.
الغائبون في الاحتفالات و عند توزيع المغانم .
وإلى الذين أحرقوا أنفسهم سخطا ويأسا قبل « البوعزيزي» وبعده ولم ينالوا أبدا شهرته حتى أننا لا نتذكر أسماءهم ، وسواء أكانوا في تونس ومصر أو غيرها من بلاد العرب.
وبالطبع إلى الفلاحين البسطاء في سيدي بوزيد وفي بلادي.

المؤلف

المقدمة

هذا النص عمل يقف بين منزلتين هما كتابة الشهادات الشفهية والتحقيق الصحفي . وجدتني مدفوعا إليه بعدما لاحظت الجهل والتشويش الذي يلف الأحداث التي شهدتها «سيدي بوزيد» إثر إحراق ابنها الشاب « محمد البوعزيزي » نفسه في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠. هذا الحدث الذي فجر ثورات ما بات يسمي بـ«الربيع العربي » مع العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين . هكذا انطلاقا من «سيدي بوزيد» مهد هذا الربيع إلى تونس بأسرها ثم إلى مصر و ليبيا وسوريا و اليمن والبحرين . وقد تفاوتت إلى حينه حظوظ نجاح هذه الثورات في الإطاحة بالطغاة وفي مدى التغيير الذي تفرضه على النظام السياسي فضلا عن الاقتصادي الاجتماعي . كما اختلفت التقديرات حول فرص هذا الربيع في شمول مختلف أنحاء الوطن العربي بما في ذلك الأنظمة الملكية والخليجية ، ومن بينها السعودية .

بالنسبة للمصريين على نحو خاص كان حدث «البوعزيزي» ملهما إلى حد كبير مع أن وسائل إعلامهم الموجهة لم توليه كثير اهتمام .وقد استمر التجاهل تجاه مسار التحول إلى الديمقراطية هناك إلى ما بعد الإطاحة بـ «بن على» في تونس و «مبارك» في مصر . ولقد أدركت هذا بنفسي عندما زرت « سيدي أبو زيد» يوم ٢٦ أكتوبر ٢٠١١ ، وتيقنت أنني أول صحفي من مصر تطأ قدماه المدينة الواقعة على بعد نحو ٢٧٠ كيلوا مترا إلى الجنوب الغربي من تونس العاصمة . وقبلها بأيام معدودة كنت قد تزودت في العاصمة التونسية بدوافع إضافية للقيام بالرحلة التي كنت قد عقدت العزم عليها قبل مغادرة القاهرة . ففي مصر كان مواطنون يتشابهون بؤسا مع حال « البوعزيزي»

وما يمثله بين شعبه يقتدون بفعلته ويقدمون على إحراق أنفسهم احتجاجا على سوء الأحوال المعيشية والبطالة وإهدار الكرامة . صحيح أن المصريين اليائسين لم يكتشفوا حل الانتحار مع خبر «البوعزيزي» .فمعدلات المنتحرين سخطا على الواقع البائس أخذت في الازدياد لسنوات قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ .

لكن الناس أصبحوا أكثر تيقظا وحساسية إزاء المنتحرين وبخاصة بأسلوب إشعال النيران في النفس .بل سارعوا في المقارنة مع فعل «البوعزيزي» إلى حد أن الانتحار حرقا أصبح «طريقة تونسية ».

ويبدو أن حالات الانتحار حرقا في مصر تزايدت في الفترة الفاصلة بين نجاح التونسيين في الإطاحة بدكتاتورهم و أسرته الفاسدة يوم ١٤ يناير ٢٠١١ وبين اندلاع الثورة المصرية بعدها بأحد عشر يوما فقط في ٢٥ يناير ٢٠١١. بل لو شئنا الدقة لقلنا أن أعلى درجات الحساسية إزاء المصريين المنتحرين حرقا شوهدت في هذه الأيام الفاصلة بين ثورتين ، مع أن إعلاميي ومثقفي السلطة ظلوا في حالة إنكار لأي تشابه ممكن بين الحالتين التونسية والمصرية جملة وتفصيلا. وقد ذهب أكثرهم احتفاظا بصورة براقة عند العرب مدعيا الحياد والموضوعية إلى وصم مواطنيه المنتحرين على الطريقة البوعزيزية التونسية حينها بأنهم ليسوا إلا « مرضى نفسيين » ولا يترجمون أي مظهر للسخط الجماعي الاجتماعي السياسي . وتحتفظ ذاكرة نشرات قناة « الجزيرة » الإخبارية بهذا الوصف من أحد الخبراء الإستراتيجيين.

لكن مع ذلك فإن الاكتراث بحقيقة و تفاصيل ما جري في «سيدي بو زيد» ظل محدودا . كما غابت مساعي تقصى ما حدث في واقعة « البوعزيزي » و ما تلاها . وحتى بعد إعلان تنحى «مبارك» في ١١ فبراير ٢٠١١ تحول « البوعزيزي » و « سيدي بوزيد» إلى أيقونة ثورة بعيدة ليس إلا . وكما قلت فإن الأيام القليلة التي مكثتها في تونس العاصمة قبل الارتحال إلى « سيدي بوزيد» زودتني بدوافع إضافية غير تلك التي جئت بها معي من القاهرة. ولأنني ببساطة اكتشفت هشاشة الصور النمطية عن « البوعزيزي» و«سيدي بوزيد». ولعل التحول الحاد المأسوي في الإعلام التقليدي التونسي من الإنكار و التشويه إلى التضخيم و التقديس يستحق في ذاته عودة إلى أرشيفات الصحف و تسجيلات الإذاعات والتليفزيونات . وهو مالم يتوافر بالنسبة لي في الفترة القصيرة للإقامة بتونس خصوصا ولأنني كنت منشغلا بمهمة متابعة انتخابات المجلس التأسيسي . وعندما عدت إلى القاهرة تيقنت من صعوبة بل استحالة العودة إلى الأرشيفات الالكترونية للصحافة التونسية على شبكة «الإنترنت» للبحث عن كيفية تناولها وقائع « سيدي بوزيد» في أوانها وبعدها . وهو أمر يذكرني بالصعوبات التي يواجهها متصفحو مواقع الصحف المصرية في البحث عن أرشيفات أعمدة إعلام السلطة قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١. وهو ما يفيد أيضا بتشابه أساليب « غسيل السمعة » و التلاعب بالذاكرة وتزييف الوعي في تونس ومصر وفي كل مكان حتى في القرن الحادي والعشرين .

إلا أن الدافع الإضافي الأقوى لمحاولة كتابة حكاية « سيدي أبو زيد » مع الثورة فقد جاء مع لقاء بالمصادفة مع السيدة «حد الدين عمامي » في تونس العاصمة . فقد فتح هذا اللقاء العين باتساع الحدقة على رواية أخرى لما جرى صادمة بعض الشئ لكنها أكثر واقعية ومنطقية بل وإلهاما قالت لي « عمامي » وهي معلمة مدرسة ونقابية قاعدية يسارية مستقلة لا تنتمي إلى أي حزب سياسي: «جرى تقديم التعامل المسئ للشرطية فادية حمدي إلى البوعزيزي بوصفها مسألة ذكورية تتعلق بإهانة الرجولة ولتخفيف خلفية الحدث الكاشفة للفقر والتهميش ». وقالت أيضا :« حاولت أسرة البوعزيزي استغلال صورتها الجديدة المستمدة من استشهاد الابن. ويشاع أنهم احتلوا منزلا في الجهة بدون وجه حق . و أخذوا في التحدث إلى الجيران بتعال مما ذكر الناس بعائلة زوجة بن على (ليلي الطرابلسية) ». وتصل رواية «عمامي » إلى ذروتها عندما تقول : «أن الناس في سيدي أبو زيد قاموا بتمزيق صورة (البوعزيزي) بعد نحو شهر من الإطاحة ببن على في محاولة لإعادة الأمور إلى نصابها وللتنبيه إلى أن الثورة لا يمكن اختصارها في شخصه .بل أن أصحابها هم الأحرار الذين واجهوا بصدورهم العارية بنادق بن على». كما أعاد هواة « الفيس بوك » على شبكة «الإنترنت » بث مشهد أم «البوعزيزي» وهي تخاطب الدكتاتور « بن على » بـ«والدنا» حينما زاره وهو بين الحياة والموت في المستشفي.

هل تنطوى هذه الرواية على تحامل على أيقونة الثورة التونسية وثورات الربيع العربي ؟.. لا أعرف على وجه اليقين . لكنني عندما ذهبت إلى « سيدي بوزيد» وسألت عن أسرة « البوعزيزي» علمت أنها غادرت لتعيش في العاصمة و لمست آثار خلافات مع الجيران . كما كان بالإمكان أن أتيقن أن الشرطية « فادية » حصلت على حكم براءة من إهانة « محمد البوعزيزي» ، وأنها مازالت تخدم في الولاية، وذلك حينما ألتقيت صدفة أخاها وهو يقطع بسيارته الشارع الرئيسي . وهو بالأصل أحد الثوار المشاركين في أعمال الاحتجاج التي اندلعت هناك .

تبدو هذه التفاصيل الشخصية صادمة للوهلة الأولى . لكن بشئ من التأمل والتعقل بالإمكان تبين أنها لا تخرج عن سنن المجتمعات والثورات . فالناس تميل إلى صناعة أبطالها وأساطيرها وبناء صور مثالية خارقة عنهم وإن لم يكن ذلك مطابقا لواقع الحال . كما أن الناس بفضل إعلام منقوص المهنية و موجه اجتماعيا وسياسيا تختزل الأحداث الكبرى كالثورات في تفاصيل وأشخاص بعينهم ، حتى لو لم تكن هذه التفاصيل وهؤلاء الأشخاص المحركات الأصيلة و الأبطال الحقيقيين . ومع ذلك ، لا يستطيع المرء أن ينكر رمزية « محمد البوعزيزي » ابن «سيدي بو زيد» في الثورة التونسية كما رمزية « خالد سعيد» ابن الإسكندرية في الثورة المصرية ، مع أن كليهما وأسرتيهما لم يكونا على صلة بالمعارضة والسياسة والنضال بأي حال . نعم .. لم يكن أيا من « البوعزيزي» أو « سعيد » معارضا أو مناضلا على أي وجه كان . لكن شعبيهما ـ وربما لهذا السبب ـ صنعا من كل منهما الرمز الأيقونة لضحايا الدولة البوليسية.. دولة غياب الديمقراطية و العدالة الاجتماعية والقانون . وسرعان ما أستلهم الثوار من الأيقونة طاقة تحد لا تنفد.

ولعل أهمية هذا الكتيب لا تتوقف عند تقديم رواية عما جرى في تلك الجهة البعيدة النائية عن أضواء العواصم العربية و إعلامها ـ وبينها تونس العاصمة ـ بلسان اثنين من شبابها (باحث الأنثروبولجيا الأمين البوعزيزي و معلم الثانوي عبد السلام الحيدوري) ، عاصرا الأحداث وكانا شهود عيان عليها ، وبقلم كاتب مصري جاء من بعيد خاليا من شبهة التحيزات الجهوية المحلية التونسية. فهذا النص ينتهي أيضا من دون قصد مسبق لكاتبه إلى تحدى اختزال اندلاع الثورة التونسية في حادثة «البوعزيزي» يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ ،وكأن الثورات أفعال فجائية لقيطة بلا مقدمات أو كأنها مجرد إلهام أشخاص ليس إلا. كما يتحدى رواية المركز (العاصمة) وأهل ما يعرف بالساحل في تونس برواية من أبناء الجهة نفسها . أبناء ما يسمي بتونس الأعماق والداخل . والرواية على هذا النحو بمثابة رد اعتبار لتاريخ ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ الذي بدا وكأن اختيار ١٤ يناير ٢٠١١ عيدا للثورة التونسية قد طمسه إلى حدما . وهي كذلك رد اعتبار للفلاحين في سيدي بو زيد وفي بلادي.

كارم يحيى
القاهرة ـ يناير ٢٠١٢

الطريق إلى سيدي بوزيد تاريخ لا ينكره التاريخ

«صدفة خير من ألف ميعاد »..
هذا ما يقوله المصريون في أمثالهم . و«الصدفة » جمعتني مع الشاب « محسن زعطوري» على مقعد خلفي واحد بسيارة السفر من العاصمة إلى «سيدي بوزيد» والتي يطلق عليها التوانسة سيارات « اللواج» . و«محسن » (٢٧ عاما) هو من أبناء الجهة . شاب عاطل يحمل شهادة تؤهله لتدريس الفيزياء . متعاطف مع حزب العمال الشيوعي لذا صوت له في
انتخابات ٢٣ أكتوبر ٢٠١١ . لكن الأهم هنا أنه كان زميل فصل دراسي واحد ومدرسة واحدة لـ «محمد البوعزيزي» في عقد التسعينيات . تذكره بقوله : إنسان صعب مشوش.و لما استوضحت منه قال :« كنا في مدرسة ٩ إبريل وفي فصل واحد .لكنه لم يكمل دراسته . كان مشاغبا . وكثيرا ما طردوه من المدرسة لعدم انتظامه في الحضور ولمشاغباته . وانقطعت علاقتي به بعد المدرسة». و لكن كل هذا لم يمنع « محسن » كما قال لي من أن ينزل مع الناس في «سيدي أبو زيد» أمام مقر الولاية في مساء يوم إحراق «البوعزيزي » لنفسه . وفسر الأمر ببساطة في ثلاث كلمات ، قائلاً : « حدثت لي صدمة » .

توضح هذه الرواية الشفاهية الموجزة في هذا اللقاء العابر أن «البوعزيزي» لم يحصل على شهادة جامعية وهو ما تيقنا منه لاحقا . لكن ولاية « سيدي بوزيد» بالقطع كانت ومازالت ومعها ولايات الوسط والجنوب فيما يسمي بتونس الأعماق حبلى بسخط أعلى نسب العاطلين من خريجي الجامعات في البلاد. وهؤلاء هم الذين أججوا مع النقابيين القاعديين من عمال وموظفين و الفلاحين البسطاء جذوة الثورة .

«قموده» هذا هو الاسم التاريخي لما بات يسمى « سيدي بوزيد» وجوارها . ووجه شبه يربطها بصعيد مصر . وعندما وطأت قدماي المنطقة بعد سفرة نحو أربع ساعات إلى الأسفل من العاصمة التونسية أدركت - ويا للمفاجأة - أن للشبه أكثر من وجه ، وأن الأمر لا يتعلق وحسب بسحر الجنوب والجنوبيين وفقرهم وهامشيتهم. بل ثمة روابط من تاريخ وأنثروبولجيا و فولكلور شعبي بين صعيد مصر وما كان أسمه في خوالي الأيام « قمودة». وهذا الاسم تحريف قام به الفاتحون العرب لكلمة « قموتة» الموروثة من عهد البربر ،و التي كان قد أخذها عنهم الرومان . فاجأني « الأمين البوعزيزي» - أحد اثنين من رواة حكايتنا هذه وهو بالأصل باحث أنثروبولجيا ثقافية في المعهد الوطني للتراث التونسي - بقوله ضاحكا ونحن نشرب الشاي على مقهى بطرف المدينة :« إحنا صعايدة أصلا». وأوضح قائلا :«هذه المنطقة كبقية المناطق التونسية جاءها الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي .. لكن ما يميزها وبخاصة عن المناطق الساحلية هو إعادة تعميرها بهجرة هلالية في القرن الحادي عشر ..والهلاليين جاءوا أصلا من صعيد مصر واستقروا بهذه الجهة ». ويضيف :« النواة البشرية الكبرى لسكان سيدي بوزيد وعماد نسيجها البشري هم من يسمون أنفسهم ويعون بذواتهم بوصفهم الهمامة .و حتى الأجيال الجديدة في سيدي بو زيد لديها هذا الوعي ». فهل ترجع تسمية « سيدي بوزيد» إلى ملحمة « أبو زيد الهلالي » زائعة السيط في مصر ؟ . لا أستطيع الجزم بذلك . لكن وفق كتاب لمؤلف من أبنائها يدعى «التهامي الهاني» استمدت «سيدي بوزيد» أسمها من شيخ متصوف جاءها في القرن الثاني عشر الميلادي. وكما ورد في الكتاب ذاته المعنون بـ « قمودة تاريخها وأعلامها » فقد مر «بنو هلال» بإقليم الجنوب التونسي «فكانت لهم قصص وبطولات تصل إلى حد الأسطورة»، كما أن «الهلاليين » نشروا اللغة العربية ووطدوا الإسلام في هذه المنطقة.

ونتوقف هنا عند أحاديث البطولة في التاريخ . فقد كنت قد التقيت في العاصمة بالمؤرخ « محمد الحماص » صاحب كتاب «الاستعمار الفرنسي وقبائل الوسط والجنوب بالبلاد التونسية ١٨٨١ ـ ١٩٥٦» .ولما سألته عن خصوصية الثورة التونسية في أنها جاءت من الأطراف إلى المركز(العاصمة)على خلاف الثورة المصرية ، لفت الرجل نظري إلى أن « سيدي بوزيد» ومعها العديد من مناطق الوسط والجنوب تحملت العبء الأكبر في الكفاح المسلح من أجل الاستقلال، إلا أنها لم تحصد سوى النذر اليسير من أفراحه ومكتسباته التنموية . وفي الكتاب ذاته ثمة إشارات تاريخية إلى دور قبائل « الهمامة » وفرسانهم في مقاومة الاحتلال الفرنسي منذ وطأت أقدامه الأراضي التونسية . و على هذا النحو فإن عملية الاستيلاء على تونس بين عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ لم تكن «نزهة عسكرية » بأي حال . ووفق ما نقل عن المصادر الفرنسية حينها فإن الجيش الغازي تكبد خلال سبعة أشهر استغرقتها العمليات العسكرية لبسط سطوته ٧٨٢ جنديا بين قتيل ومفقود. وكانت قبائل الجنوب والوسط ـ بما في ذلك منطقة «سيدي بوزيد» بخبراتها القتالية و ميراثها في التمرد ـ هي المتصدي للغزو الأجنبي. وفي ذلك الزمان قدر الجنرالات الفرنسيون قوة قبيلة الهمامة بأربعة آلاف فارس يحسب لهم حساب.ويعزو الكتاب إلى « الهمامة » الدور الأبرز في خيار المقاومة المسلحة للغزو الفرنسي عند قبائل الوسط والجنوب . ويلفت الانتباه إلى اعتماد « الهمامة » حرب العصابات مما أطال أمد مقاومتهم الغزو لنحو العامين ويفسر صمودهم كل هذه المدة في مواجهة قوات غازية مزودة بأحدث الأسلحة الفتاكة حينها .

ويبرز في هذا السياق أسماء قادة ينتمون إلى «الهمامة» ومنطقة «سيدي بوزيد» على رأسهم :« أحمد بو يوسف» و« علي بن ضو ». وفي أدبيات المستعمرين الفرنسيين المعاصرين لمقاومة الوسط والجنوب التونسي بقيادة الرجلين في ١٨٨١ و١٨٨٢ وصف لهذين العامين بـ «الانتفاضة» و«الثورة » ، وإن سعوا إلى تشويه «بن ضو باطلاق أوصاف « قاطع الطريق » على الرجل المقاوم الذي فقد ذراعه خلال أعمال المقاومة المسلحة. ولقد كان على هذه القبائل أن تخوض على مدى سنوات الحماية الفرنسية وحتى الاستقلال المعركة تلو المعركة دفاعا عن الأرض والثقافة و ضد الضرائب المجحفة . ورغم تحول المدن والحضر إلى فضاء للنشاط السياسي والحزبي والنقابي المطالب بالاستقلال الوطني ، إلا أن الأرياف التونسية تعود بين أعوام ١٩٥٢ و ١٩٥٤ ساحة لحركة مقاومة مسلحة تعرف باسم « الفلاقة ».وقد اعتمدت أيضا أسلوب حرب العصابات بينما كانت البلاد على أعتاب استقلال عام ١٩٥٦. و في هذا السياق يقول « الأمين البوعزيزي» باحث الأنثروبولوجيا و الرواي الرئيسي لحكايتنا عن أيام الثورة في «سيدي بوزيد» أن هذه المنطقة قدمت ثلثي شهداء الحركة الوطنية في الأعوام الست السابقة مباشرة على الاستقلال . وكانت توصف جغرافيتها في ارتباطها بالكفاح المسلح بتعبير « أطلس المعارك » .

سبق زمن المقاومة المسلحة للغزاة الفرنسيين نهاية القرن التاسع عشر ما أطلق عليه الباحث في التاريخ التونسي « نجيب العكرمي » « انتفاضات الأرياف والبوادي ». وتمتد منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى ١٨٨١ . وتشكل تاريخا طويلا من التمردات على السلطة المركزية وتنطوي على تجاذبات وصراعات بين تونس الساحل وتونس الداخل الأعماق لا تخلو من دوافع اقتصادية وثقافية .

والصراع بين التونسيين على هذا النحو في وصف بليغ لعالم التاريخ الاجتماعي الأبرز في تونس و اليساري المجدد « الهادي التيمومي » في كتابه الأحدث « تونس في التاريخ من جديد : ١٤ جانفي (يناير) ٢٠١١» يتلخص في العبارات التالية ، يقول :«يعود التناقض بين تونس الساحلية وتونس الداخلية إلى آلاف السنين . وكل الحركات التمردية في التاريخ التونسي ضد القهر الاجتماعي والسياسي والديني منذ القديم انطلقت من هذه المناطق الداخلية ». ويضيف :« لا بد من ملاحظة أن سكان المناطق المحظوظة والكثير من المثقفين يكنون نوعا من الازدراء تجاه المناطق الداخلية. ولقد ظل لتاجر المناطق الساحلية الذكي الداهية على امتداد تاريخ تونس الطويل الغلبة والقدرة على إخضاع فلاح المناطق الداخلية الشجاع الطيب . لكن غير البارع في الحسابات السياسية ».

و إذا جاز الحديث عن تاريخ متكرر من الانتفاضات المغدورة هبت من الداخل التونسي بما في ذلك منطقة « سيدي بوزيد» . فإن المثل الأبرز في «انتفاضات الأرياف والبوادي» تلك قبل الغزو الفرنسي هو « انتفاضة على بن غذاهم » في عام ١٨٦٤، وذلك على أسم قائدها . وقد دامت لثمانية أشهر . وتعد هذه الانتفاضة الحدث الثوري القومي الأبرز في تاريخ تونس القرن التاسع عشر . وهي تناظر على هذا النحو في التاريخ المصري ثورة الأميرالاي « أحمد عرابي » وصحبه من العسكريين والمدنيين الوطنيين بين عامي ١٩٧٩ و ١٨٨٢ والتي جرى قمعها مباشرة على يد قوات الغزو البريطاني الذي دهم المحروسة في صيف وخريف عام ١٨٨٢. وإن يبقى كتابة تاريخ الانتفاضات الفلاحية وتمردها على السلطة المركزية في هذا القرن بمصر غير مكتوب في مطبوعات بمتناول عموم القراء والمثقفين .

وإن جرت تسمية « عرابي » بزعيم الفلاحين دليلا على انتساب هذا العسكري إلى جموع شعبه ، وفي مواجهة أسرة أجنبية حاكمة لها امتدادها داخل قيادة الجيش .

وواقع الحال ، فإن علاقة التونسيين بالجيش تنطوي على قدر من التعقيد والتفاصيل . فقد بدأ الباي (الحاكم) المصلح «حمودة باشا » في عملية تونسة قواته مبكرا عن تجربة «محمد على» وتحديدا في عام ١٧٩٤ ، كما شرع في بناء نواة جيش وطني وإقامة صناعة عسكرية .وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر زاد « أحمد باي » الإصلاحي هو الآخر من نصيب التونسيين في الجيش وصعد بهم إلى مراتب قيادية رفيعة للمرة الأولى وأسس مدرسة حربية في «باردو» بالعاصمة . إلا أنه سرعان ما جرى إغلاق هذه المدرسة عام ١٨٦٩ .وتراجعت مكانة المؤسسة العسكرية في مشروع النهضة التونسية. بل ولم نلحظ للجيش الوطني أي أثر في مقاومة تزايد النفوذ الأجنبي ثم الغزو الفرنسي في عام ١٨٨١ ، وكما يفيد ذلك كتاب للمؤرخ التونسي « على المحجوبي » .

ثمة اختلاف واضح بين الحدثين الثوريين الأبرز في القرن التاسع عشر في تونس ومصر . في مصر كانت طليعة القوى الثورية من داخل مؤسسة الجيش وأحداثها الأبرز والأكثر تأثيرا في العاصمة القاهرة (وقفة الضباط والجنود الوطنيين في ساحة عابدين في ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ وقولة زعيمهم عرابي الشهيرة للخديوي توفيق : لسنا عبيد إحساناتكم .. والله الذي لا إله إلا هو لن نورث بعد اليوم). أما في تونس انتفاضة ١٨٦٤ فقد بدأ المد الثوري من الجنوب إلى الشمال من تونس الأعماق إلى تونس الساحل ليشمل مختلف أنحاء البلاد عدا العاصمة وضواحيها التي ظلت خاضعة للباي « محمد الصادق » ووزيره « الخازندار ».

وهنا يلفت نظرنا الباحث « يامن حمدي » في كتابه « انتفاضة على بن غذام » لما لـ«سيدي بوزيد» و«الهمامة» من دور مبكر في هذه الانتفاضة والتي اشتعلت مبكرا في الجوار بمنطقتي « الجريد» و « قفصة ». قال : «عمت الانتفاضة منطقة قفصة والهمامة التي سيطرت على الوسط التونسي وانتشرت بعدها شمالا وغربا ».

وعلى خلاف حال ضابط الجيش « عرابي » وصحبه من أبناء الفلاحين المصريين مع ما هو معروف من استمرار صدارة بناء مؤسسة الجيش الوطنية في المشروع النهضوي المصري للقرن التاسع عشر ، لم يخدم « على بن غذاهم » بطل الانتفاضة التونسية الأبرز في هذا القرن في جيش أو أي من مؤسسات مشروع الدولة الحديثة حينها . كان الرجل فارسا محاربا من قبيلة « ماجر » غربي البلاد التونسية . وهو وفق الباحث « حمدي »بالأصل من « عائلات منطقة قابس التي تمتلك مكانة اجتماعية مرموقة وينتمي إلى زاوية (صوفية) لها تأثيرها في البلاد،هي الزاوية التيجانية . ويتمتع بمقدار من العلم والثقافة» . وبفضل هذه الخصال وإضافة إلى حركيته وديناميكيته في عقد التحالفات ومراسلة مختلف القبائل وسعيه لتنظيم الانتفاضة ، اتفقت قبيلته على تمليكه أمرها ، و أطلقت عليه لقب «باي الشعب» أو «باي الأمة». و ما لبث أن «امتد نفوذه للقبائل المجاورة ..وأصبح زعيم المنتفضين ». ولاحقا استطاع «بن غذاهم» بناء تحالفات مع تجار مدن ساخطين هم أيضا على زيادة الضرائب وتوسع نفوذ الأجانب .

ومع هذه الاختلافات بين « بن غذاهم » و« عرابي » الذي تولى منصب وزير الحربية في حكومة يرأسها رفيقه الأميرالاي « محمود سامي البارودي » بين عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ ، فإن ثمة أوجه تشابه بين الحدثين الثوريين الأبرز في تونس ومصر خلال القرن التاسع عشر . وهذه الأوجه تعود ـ في ظني ـ إلى السياق الأرحب للأحداث في البلدين . فقد شهد البلدان في هذا القرن بناء مشروع دولة قومية حديثة، وفي إطار قدر من الاستقلال السيادي الإداري عن الخلافة العثمانية . وصاغ التونسيون وثيقة «عهد الأمان» في عام ١٨٥٧ ووضعوا أول دستور في العالمين العربي و الإسلامي في عام ١٨٦١ ،ولحق بهم أخوانهم المصريون مع أول دستور للمحروسة عام ١٨٧٩ . و في هذا القرن يعد كتاب « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » للشيخ رفاعة الطهطاوي ونظيره كتاب « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » لخير الدين باشا معلمين فكريين متشابهين يفيدان بإطلالة مشرقية على أنوار الغرب و عنوانا مشتركا لحداثة تمزج المعاصرة الأوروبية بالتراث الإسلامي . كما شهد النصف الثاني من هذا القرن في البلدين بناء مؤسسات حكم حديثة ،ولو من ناحية الشكل ليس إلا ، بما في ذلك برلمان في البلدين « المجلس الأكبر » في تونس و «مجلس شورى النواب» في مصر . كما تتشابه سياقات أزمة الحكم الاستبدادي والاختراق الغربي الأوروبي . بما في ذلك الإنفاق عن بذخ على المظاهر الأوروبية والاستدانة بسفه على نحو أوقع تونس ومصر في شراك الاستعمار الاقتصادي قبل احتلالهما عسكريا في عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ على التوالي . وفي هذا البذخ المظهري والاستدانة من المرابين الأوروبيين ما حمل القوى الاجتماعية الوطنية الرئيسة في البلدين المزيد من الأعباء المالية ، ودفع بها للانحياز إلى الانتفاض على كل من مغارم الاستبداد ومخاطر الاستعمار .

وتبقي الدروس المشتركة لنشوب انتفاضة «بن غذاهم» و«ثورة عرابي» وانكسارهما ماثلة في تعثر مشروع بناء الدولة القومية ومؤسسات الحكم والإدارة الحديثة في سياق استبدادي واستعماري ضاغط ومعرقل للتقدم على المسار الوطني الديمقراطي.

وبعدها لا يوجد في تاريخ تونس الحديث ما قبل الاستقلال ما يقارن بثورة ١٩١٩ المصرية في شمولها وعنفوانها وخصائصها الوطنية ،وما أنجزته من استقلال شكلي و ديمقراطية دستور ١٩٢٣ المغدورة دوما . لكن ثمة حدثان ثوريان تونسيان خلال هذه المرحلة يستحقان التوقف . الأول هو «انتفاضة القصرين وتالة»١٩٠٦، والثاني هو ما يوصف بـ «أحداث إبريل ١٩٣٨» . ويقع الأول على تخوم منطقة « سيدي بوزيد» ،أما الثاني فقد عم الأراضي التونسية وإن كان مركزه في العاصمة . وبشأن ما حدث في «تالة » و«القصرين» يلمح الدكتور «التيمومي» في كتاب خصصه لهذا الحدث إلى أن الانتفاضة دامت يوما ونصف اليوم فقط ، كما أن مجالها الجغرافي محدود أيضا ، وكان قوامها بالأساس قبيلة «الفرافيش » . ومع أن هذه الانتفاضة استهدفت منذ انطلاقتها المعمرين الفرنسيين المستوطنين في أراضي الوسط الغربي إلا أنها افتقدت ـ في رأي «التميومي» ـ إلى غايات واضحة . وإن ورد في تقارير الإدارة الاستعمارية أن المنتفضين كانوا يستهدفون بعد تحرير تالة والقصرين ـ واستنادا إلى العنف ـ تحرير كل الأراضي التونسية من الفرنسيين ومن عملائهم « الحسينيين » (الأسرة المحلية الحاكمة). ثم تسليم السلطة السياسية إلى شخص من سلالة « الحفصيين » يكون بمثابة مهدي منتظر سيملأ الأرض عدلا .

وعلى عكس «انتفاضة تالة و القصرين» التي غلب عليها حمل السلاح و القيادة ذات الطابع الديني الصوفي انطلقت الدعوات لانتفاضة إبريل ١٩٣٨ من التنظيمات المدنية الحديثة في العاصمة. ويتضح من كتاب الباحث « محمد بوقرة » عن هذه الانتفاضة أنها جاءت في سياق سلسلة من الأحداث الثورية من بينها عديد من المظاهرات السابقة ضد الاستعمار . ويصف الباحث ذروة الأحداث يوم ٩ إبريل التي أعقبت دعوة العصيان المدني في هذا اليوم ، قائلا :« عم الإضراب العام البلاد من أدناها إلى أقصاها» . ونزل طلبة جامع الزيتونة والصادقية والعمال الحرفيون إلى شوارع تونس العاصمة في مظاهرات منظمة بلغ عدد المشاركين فيها بمئات الألوف . وفي الساعة الثالثة مساء من ذلك اليوم انتقل جمع غفير إلى قصر العدالة تضامنا مع الزعيم الشاب (على البهلوان) الذي جرى تقديمه للمحاكمة على خلفية سياسية وطنيه .وعندما أطلقت قوات الأمن النار لتفريقهم اندلعت المواجهة .فاصطدم الآلاف من المتظاهرين الذين أقبلوا من الأحياء الشعبية القريبة من قصر العدالة كباب السويقة و الحلفاويين و رأس الطابية و الملاسيين بالقوة العمومية ». ويضيف في تقييمه لهذا الحدث :« كان يوم ٩ إبريل ١٩٣٨ يوما مشهودا أضربت فيه الإيالة التونسية عن العمل . فتعطلت المصالح وتوقفت المواصلات و أغلقت الأسواق والدكاكين ونزل الشعب إلى الشارع بعدما حصلت القطيعة من جديد بين الجماهير وسلطات الحماية .. وقد حققت هذه الأحداث هدفا مهما وهو إيقاظ الضمير القومي وبث الشعور الوطني في جميع الطبقات ». وفي مثل هذه الأحداث التونسية ما يشابه ما جرى في مصر من مظاهرات وإضرابات كبرى في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين وبخاصة في عامي ١٩٣٥ و١٩٤٦ .

ولكن لاعتبارات الجغرافيا السياسية و لوضع المؤسسة العسكرية تاريخيا في قلب مشروع بناء الدولة القومية الحديثة عاد الجيش في مصر ليلعب دورا وطنيا في لحظة الاستقلال وما تلاها مع ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وذلك على خلاف الحالة التونسية والقوى الفاعلة في لحظة الاستقلال عام ١٩٥٦ وما تلاها.و إذ أن الحماية الفرنسية التي فرضت التجنيد على أبناء الشعب التونسي لم تسمح له بالأصل قبل الاستقلال ببناء جيش وطني . ولم يبرز في تاريخ العسكر التونسيين محطات من قبيل دور الجيش المصري في السودان على أعتاب القرن العشرين و تأثير معاهدة ١٩٣٦ على دفع دماء جديدة من الطبقات الوسطى والشعبية إلى صفوف ضباط الجيش و منحه قدرا من الاستقلالية عن قوة الاحتلال.

بعد الاستقلال عرفت تونس حدثين ثوريين عامين كبيرين في عهد رئيسها الأول « الحبيب بورقيبة » ولكن على خلفية اقتصادية اجتماعية بالأساس .وهما انتفاضتا عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٤ . وإن حفلت الأراضي التونسية بأحداث ثورية عديدة. وبشأن طبيعة هذه الأحداث الثورية في عهد « بورقيبة » يقول الباحث « نجيب العكرمي » :« لقد تحول الفعل النضالي في الفترة ما بعد الاستعمار من العمل المسلح الذي مثل الجبل فضاء بالنسبة له إلى فضاء الشارع حيث نزلت الجماهير للشوارع ، ومثل بذلك الشارع الإطار العام للعمل النضالي السياسي ، فالتقت في فضاء الشارع جميع فئات المجتمع : المحلي الريفي والمدني من الشيخ بعصاه إلى الفارس ببندقيته والسياسي بفكره ، بذهنية ومنظومة جديدة . وقد أسهم تطور وسائل الاتصال بتحول في آليات العمل النضالي التحرري . واليوم أصبحت تنطلق أكبر الحركات الاحتجاجية والثورية من الشوارع تقودها الفئات المثقفة بسلاح الفكر.

أما بالأمس فسلاحها البارود وفضائها الجبل ». وبصرف النظر عن تجاهل التقييم السابق لأحداث التظاهر والإضرابات والإعتصامات في المدن قبل العهد البورقيبي ، فإن « العكرمي » نفسه يشير إلى دور «الإتحاد العام للشغل» في العديد من الأحداث الثورية في زمن ما بعد الاستقلال . وواقع الحال ، فإن علاقة الإتحاد بالسلطة السياسية هي على نحو بالغ من التعقيد ،و تتفاوت من حين لآخر بين التحالف والصراع والاستيعاب مع الحزب الدستوري الحاكم وقيادة الدولة . وعلى نحو يبينه كتاب الباحث « الأمين اليوسفي » عن الحركة النقابية بتونس .

لكن ما يعنينا هنا هو أن أحداث ٢٦ يناير ١٩٧٨ الثورية سبقتها دعوة قيادة «الإتحاد العام للشغل» برئاسة «الحبيب عاشور» إلى الإضراب العام في هذا اليوم بسبب غلاء الأسعار. وبشأن ما جرى في هذا اليوم يقول الباحث « نجيب بن مرعي » في كتاب خصصه لهذه الانتفاضة :« عمت المسيرات والمظاهرات العمالية و الشعبية شوارع العديد من المدن التونسية ، ورافقتها مصادمات وأعمال عنف وحرق وتكسير .و اعتبر الاتحاد أن مجموعة من ميليشيات الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم هي التي تعمل على جر المتظاهرين والغاضبين لفوضى العنف قصد إقامة الدليل و إثبات التهمة على أن الإضراب العام الذي دعا إليه الإتحاد العام للشغل هو إضراب تقوده خلفيات سياسية مشبوهة وعصيان مدني يهدد الأمن والنظام العام ، وليس دفاعا عن استقلاليته وعن مصالح الشغالين (العمال) وليس إضرابا مشروعا». و لقد جرى التصدي للإضراب العام والمظاهرات بعنف بالغ أسفر عن قتلى وجرحى .كما جرى اعتقال قادة اتحاد الشغل ومحاكمتهم أمام محاكم أمن الدولة، وإصدار أحكام سجن بحق العديد منهم ، و في مقدمتهم «الحبيب عاشور» .

وإذا ما عدنا سريعا لتمثل التاريخ المصري ، يلفت النظر أن انتفاضة الخبز المصرية في يناير ١٩٧٧ ـ وقد عمت البلاد هي الأخرى ـ سبقت نظيرتها التونسية بعام واحد ليس إلا . وهي دليل على أن نار الاقتصاد الحر و« الانفتاح الاقتصادي » انكوى بها الشعبان في وقت متزامن . لكن الحدث الثوري التونسي يتميز عن نظيره المصري بوجود تنظيم نقابي قومي شبه مستقل عن سلطة الدولة ، فيما أجهز حكم العسكر في مصر على ما كان من استقلالية للتنظيمات النقابية قبل ثورة ١٩٥٢ وعرقل تطورها وشوهها وشل فاعليتها .

ولا تتوافر لدينا معلومات كافية عن انتفاضة الخبز التونسية في عام ١٩٨٤ . لكن الثابت من كتاب مهم لاثنين من الصحفيين الفرنسيين هما « نيكولا بو » و « جان بيير تيكو » بعنوان « صديقنا الجنرال » أن الدكتاتور « زين العابدين بن على » الذي أطاحت به ثورة الياسمين (ديسمبر ٢٠١٠ / يناير ٢٠١١) لعب دورا في قمع الحدثين الثوريين في ١٩٧٨ و ١٩٨٤ من موقعه في جهاز الأمن فوزارة الداخلية . وفي رأي مؤلفي الكتاب فإن انتفاضة ١٩٨٤ مثلت القطيعة النهائية بين « المجاهد الأكبر » (بورقيبة) وبين الشعب التونسي .

فهل كانت تونس حقا بكماء صماء إزاء قمع وفساد حكم « بن على » ؟.. هذا السؤال تجيب عليه الصفحات التالية عن إرهاصات ومقدمات ثورة ٢٠١٠ /٢٠١١.

النار تحت الرماد من مقدمات الثورة

أبدا لم يكن التونسيون صامتين ..

في زيارتي الأولى لتونس نهاية سبتمبر ٢٠١١ أبلغتني الصديقة الكاتبة المعارضة للدكتاتور «زين العابدين» في زمانه وأوانه «نزيهه رجيبة » (أم زياد) بمعلومة لها دلالتها ومن الصعب على المرء أن يجدها بين الأوراق أو في كتاب . قالت: « في الأعوام السابقة على اندلاع الثورة من سيدي بوزيد بدأ مشجعو كرة القدم في مدرجات الملاعب بالهتاف ضد بن علي وعائلته المتنفذة وأقارب زوجته ليلي الطرابلسي ».

نحو ساعتين كاملتين في مقر نقابة الصحفيين بتونس العاصمة جلست أستمع إلى « أم زياد» حول مقدمات الثورة . حكت عن كيف كانت جماهير الكرة تمزج في شعاراتها وعنفها الرياضي بالسياسي وكيف تحولت مباريات إلى سب الرئيس وزوجته تماما مثلما حكت عن حركة «يزي» التي استلهمت « كفاية» المصرية . والكلمة مماثلة في العامية التونسية لنظيرتها المصرية . لكنها توقفت كثيرا عند أحداث « الحوض المنجمي » في «قفصة» عام ٢٠٠٨ . وهي أحداث في ظني تشابه في نبوءتها السياسية ما حدث في مدينة «المحلة» المصرية نصف الصناعية نصف الريفية عام ٢٠٠٨ حين أسقط المتظاهرون من فوق أعمدة الإنارة في الشوارع صور «مبارك» وداسوها بالأحذية. وإن لم يستغرق الحدث الثوري للمحلة أكثر من ثلاثة أيام فيما دام نظيره التونسي عدة أشهر.

واقع الحال ، أنني كنت قد استمعت قبل أن التقي بـ « أم زياد » إلى مقدمات مماثلة رواها لي زميلا مهنة : الإذاعية في راديو صفاقس « عبير شقرون » و الصحفي في جريدة الإتحاد العام للشغل « على شوشان ». هذا فضلا عن أحاديث تأثيرات «الفيس بوك » و « تويتر» وثورة المعلوماتية الشبابية الجديدة . لكنى عثرت قبل مغادرة تونس على كتابين حديثين يشتملان على مقدمات لا بأس بها للثورة التي انطلقت من « سيدي بوزيد». الأول للدكتور «نزار شقرون» بعنوان « رواية الثورة التونسية » ، والثاني لـ«بشير الحامدي» بعنوان « الحق في السلطة والثروة والديمقراطية : قراءة في مسار ثورة الحرية والكرامة » . وإليهما يعود الكثير من الفضل على هذا النص عن مقدمات الثورة .

ويكاد يتوافر إجماع على أهمية أحداث « الحوض المنجمي » بالجنوب الغربي في التمهيد للثورة. ومركزها مقر شركة تعدين الفوسفات في ولاية« قفصة » الملاصقة تماما لولاية «سيدي بوزيد». ويلفت الانتباه أنه في هذا العام ارتفع عدد الشركات العامة التي جرى خصخصتها (تفويتها بالمصطلح التونسي) إلى ٢١٧ شركة ، بعدما كانت في عام ٢٠٠٠ فقط ١٤٧ شركة . وما أدراك ما الخصخصة في تونس ومصر وما صحبها من فساد و تنكر لحقوق المواطنين في العمل وإهدار لحقوق العمال . ولقد بدأت أحداث «الحوض » باحتجاج مجموعة من الشباب تقدموا للعمل في شركة تعدين الفوسفات التاريخية والشهيرة بمنطقة « الرديف » ضد المحسوبية و الرشوة التي أثرت على فرصهم في التوظيف . وسرعان ما انتشر هذا الاحتجاج على هيئة اعتصامات ضد البطالة بين مدن وبلدات الحوض (في المظلية و العرائس و الرديف المتلوى وغيرها علاوة على قفصة مقر الشركة) .

و لعل المنطقة مثلت حالة نموذجية لضحايا سياسة الخصخصة والفساد الذي تشابكت فيه مصالح الأسرة الحاكمة بالرأسمالية الأجنبية بمعدلات البطالة العالية التي قدرت نسبتها بين أصحاب الشهادات العليا في عموم البلاد بنحو ١٥ في المائة . فكيف الحال بالمناطق الداخلية (تونس الأعماق) التي لم يكن حظها بعد الاستقلال في التنمية ومشاريعها أفضل كثيرا من زمن المستعمر الفرنسي . وثمة إضافة لها دلالتها هنا. فمنطقة «الحوض المنجمي» التي توفر لتونس عوائد هامة من ثروتها المعدنية يقف أبناؤها ضائعين بلا فرص عمل . وحتى عندما تتوافر هذه الفرص يتخاطفها ذوو الحظوة من أصحاب العلاقات بالمتنفذين في البلد . وكما يقول « شقرون» في كتابه :«كانت المفارقة كبرى . شركة فوسفات توفر عائدات ضخمة من العملة الصعبة منذ أكثر من قرن ومنطقة منجمية مهملة إهمالا تاما . هذه المفارقة المصغرة هي صورة الوضع التونسي . ثراء فاحش لعصابة رئاسية وسلب فاحش لحق شعب بأسره في الحياة الكريمة ».

استمرت انتفاضة «الحوض المنجمي » من اعتصامات وتظاهرات لأكثر من ستة أشهر ، وقد صحبها تعطيل خط السكك الحديدية الواصل بين مناطق التعدين والعاصمة بالجلوس على قضبانه . وهي بذلك في رأي المراقبين التونسيين الأطول عمرا في الاحتجاجات والاعتصامات والإضرابات التي عرفها عهد «بن علي» الذي امتد منذ عام ١٩٨٧ . وفي ذلك يقول « الحامدي» في كتابه :« كل التحركات التي وقعت قبل ٢٠٠٨ عبرت بشكل محدود عن رفض الجماهير لسياسة الاستغلال الطبقي والتفقير والبطالة والتهميش والقمع بكل أنواعه .. لكن انتفاضة الحوض المنجمي كانت الحدث الأكثر دلالة وعمقا على هذا الرفض .

ويمكن القول بأنها مثلت نقلة نوعية في النشاط الجماهيري منذ تولي بن على السلطة ، سواء من حيث الأشكال النضالية والتعبئة الشعبية وجماهيرية الحركة أو من حيث المطالب والشعارات ».

من الواضح أن الانتفاضة امتدت من الشباب المتعلم العاطل المحروم من العمل إلى قطاعات واسعة من العمال والفلاحين والموظفين الفقراء والنساء و كذا الكوادر القاعدية في اتحاد الشغل. و بلغت الأحداث ذروتها في شهر يونيو ٢٠٠٨ حين شنت قوات الجيش والشرطة حملة دهم لبيوت النشطاء في هذه الانتفاضة. واعتقلت وعذبت و نكلت، بل وأطلقت الرصاص الحي ، قبل أن تقدم المئات إلى محاكمات ظالمة. وقد جرت حملة القمع هذه بعد أسابيع طوال من حصار المنطقة بأعداد غفيرة من القوات وبتعتيم إعلامي .

و مع كل هذا القمع والأحكام الثقيلة ضد قادة انتفاضة «الحوض المنجمي » ، فإن خبراتها النضالية شاعت في المناطق المجاورة وفي عموم مناطق الوسط والجنوب التونسي . كان القمع شديدا . لكن الطريق إلى إندلاع شرارة الثورة من « سيدي بو زيد » مر على أسماء بلدات « فريانة » و « السخيرة » و « بن قردان » وغيرها بين عامي ٢٠٠٨ و ٢٠١٠. وثمة نضالات و احتجاجات أخرى في تونس العاصمة والعديد من المدن . هناك العشرات من إضرابات الجوع والاعتصامات والإضرابات عن العمل . وهناك نضالات صحفيين ومحامين وقضاة دفاعا عن الحريات وتنظيماتهم النقابية المستقلة التي ضاق نظام « بن على » بها ذرعا في سنواته الأخيرة . فاستبدل قيادة نقابة الصحفيين المستقلة في إبريل عام ٢٠١٠ بأخرى مطواعة تابعة برعاية اتحاد الصحفيين العرب (اتحاد صحفيي الأنظمة) .. وهكذا .

لا يـرى إعـلام السلطة، و إن رأي لا يكتـب ،وإن كتـب أخفـى وشـوه . بـالقطع لا يكتـب عـن هـذا التـاريخ ولا يـراه . وحتـى عنـدما «تقـع الفـأس فـي الـرأس » وتنـدلع الثـورات وتنجح في الإطاحة بالطغاة، فإن الإعلام ذاته يجد الجرأة ـ بـل البجاحـة ـ كـي يقـول بـأن الثـورة هبطـت مـن السـماء أو جاءت من فراغ . لا شئ قبلها .. إنها حدث فريد .. معجزة . يقول ويكرر : لا شئ قبلها لأنه ببساطة لا يريد المزيد من التغيير بعدها .

وثمة مفارقة استمعت إليها من الزميلـة « عبيـر شـقرون » فقـد أحـرق الشـاب « عبـد السـلام تـرميش » فـي مدينـة « المنستير » مسقط رأس « بورقيبـة » نفسـه علـى طريقـة « البوعزيزي» . كان ذلك في مارس ٢٠١٠ . وربمـا أحـرق أنفسهم غيره في تونس الكثيرون تماما كمـا حـال شـباب فـي مصـر . لكـن الثـورة كانـت تنتظـر حـدث «البـوعزيزي » هناك فـي « سـيدي بوزيـد» . فكيـف كانـت أحداثها فـي تلـك المدينة التي لا يتجاوز تعداد سكانها الأربعين ألفا في ولايـة تحمـل ذات الاسـم منـذ عـام ١٩٧٣ ويقطنهـا لحظـة الثـورة نحو ٤٠٠ ألف نسمة من بين إجمالي تعداد الشعب التونسـي الذي بلغ حينها ١٠،٥ مليون نسمة.

رواية«البوعزيزي»و«الحيدوري» ١٧ ديسمبر٢٠١٠ - ١٤ يناير ٢٠١١

تحت سماء غائمة ممطرة حكى الراويان «الأمين البوعزيزي » و «عبد السلام الحيدورى» ما جرى في جهتهما « سيدي بوزيد» بشأن هذه الثورة التي وصفت بأنها مهد ثورات الربيع العربي . استقبلاني عند مدخل المدينة عاصمة الولاية ومررنا بشارعها الرئيسي الذي تصطف على جانبيه مقار الإدارة ومرافق الولاية . أشار «الحيدوري » إلى مقهى يوزع مقاعده على جانبي الشارع يحمل لافتة « سمرقند » وقال :« هذا كان مركز عمليات الثورة حيث كنا نجتمع
لكتابة البيانات والتداول فيما سنفعل بعد ». لكننا تجاوزناه و قصدنا مقهى آخر في نهاية المدينة .. أي على الطرف الآخر البعيد عن مدخلها .

وعندما جاءت أكواب الشاي الساخنة وبدأ الحديث أدركت أن « سيدي بو زيد » لم تكن هي الأخرى نائمة في العسل أو البصل قبل سنوات وأشهر من شرارة الثورة في ١٧ ديسمبر ٢٠١١ . فقد أبلغني الراويان بجملة وقائع تفيد بأن المدينة كانت تعيش زمن الاختمار الثوري . ولقد كان بإمكانهما تذكر سلسلة اعتصامات للفلاحين والعمال والموظفين رعاها ما أسمياه بالجناح الثوري في اتحاد الشغل و كوادره القاعدية علي مدي عام ٢٠١٠. إلا أن هذه المدينة الوادعة المظهر الواقعة على بعد نحو ٢٧٠ كيلو مترا من العاصمة عرفت قبلها بسنوات تظاهرات تضامن مع فلسطين والعراق . وكحال مصر فإن ما بدا بعيدا سرعان ما أصبح قريبا . وبصيغة أن تحرير القدس وبغداد يبدأ من تحرير القاهرة .

ينطبق الأمر ذاته على ما جرى على مدي العشرية الأولى من القرن الحادي والعشرين في تونس . وهنا يتذكر الراويان تظاهرة تضامن مع قافلة سفن الحرية إلى غزة في بداية صيف عام ٢٠١٠ تردد فيها هتاف :« يسقط نظام السابع .. يسقط عميل تابع ». والمقصود بنظام السابع هو نظام الرئيس «بن على» الذي تولى الحكم بانقلاب طبي على « بورقيبة» في ٧ نوفمبر ١٩٨٧ . والمعروف أن « بن على » كان أحد رموز التطبيع في المنطقة إلى حد أنه دعا السفاح رئيس الوزراء الإسرائيلي « إرييل شارون » لزيارة تونس في نوفمبر ٢٠٠٥ بمناسبة انعقاد قمة المعلوماتية . كما يشير الراويان إلى تنظيم اعتصام للفلاحين يوم ١٥ يوليو ٢٠١٠ في نفس الموقع الذي أحرق فيه « البوعزيزي» نفسه .. أي أمام مقر الولاية . ويشيران كذلك إلى قيام النقابيين القاعديين (الجناح الثوري في اتحاد الشغل) بطرد ممثلي قيادة الإتحاد في ٢١ نوفمبر ٢٠١٠ احتجاجا على محاولة تمرير تعديل في قانون الصناديق الاجتماعية بتمديد سن التقاعد ، أسماه الثائرون بـ«تعديل سرقة أعمارنا بعد سرقة جهدنا ». وحينها كانت الشعارات المرفوعة في الاجتماع العمالي العاصف بالولاية وفي قلب المدينة : «التقاعد استحقاق يا عصابة السراق».

ولما سألت «الأمين البوعزيزي» عن موقف السلطات المحلية من هذه الأحداث وكيف واجهتها ، قال :« كان التصدي للأحداث يجرى على قاعدة أخف الضرر .. أي تجنب استخدام العنف المفرط نظرا لتنامي الاحتقان الاجتماعي » . وأضاف :« كأن الولاية كانت في انتظار شرارة الثورة .. فمراكمة الغضب أحدثت تغييرا على جغرافيا الخوف .. ونقلته من نفوس المحكومين إلى الحكام ».

وفق الراويين فإن الأحداث بدأت في نحو الساعة العاشرة والنصف صباح يوم الجمعة ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ أمام مقر الولاية حين إحراق « محمد البوعزيزي » نفسه وبجواره عربته المحملة بالخضراوات والفواكه. بدأ الناس في التوافد والتجمع في الموقع نفسه. وقتها كان الوالي داخل مقره (يدعى مراد ..وبالأصل هو أستاذ جامعي من بنزرت) . وعند الساعة الرابعة عصرا بلغت الأعداد المتجمهرة الآلاف ..ربما خمسة آلاف.و تتشكل نواتهم الثورية من نقابيين قاعديين ونشطاء سياسيين، لم يكن بينهم بأي حال إسلاميين أو كوادر حزب «النهضة » لراشد الغنوشي، فضلا عن أسرة « البوعزيزي» وأبناء الأحياء الشعبية على أطراف المدينة مثل «حي النور » الذي يقطنه بالأصل الشاب المنتحر.

ووجد المتجمهرون في سور مبني الولاية هدفا لهم .يقذفونه بالبرتقال من فوق عربة «البوعزيزي» . وبالأصل كان السور مستفزا على مدار عام كامل بعد إتمام بنائه بتكلفة تقدر بنحو ٤٠٠ ألف دينار تونسي (نحو ٢٧٥ ألف دولار) كما شاع بين سكان المنطقة من الفلاحين،و الذين اعتبروا بناءه على هذا النحو رمزا للإهدار والسرقة والفساد . و خلال عمليات القذف بلغت بعض حبات البرتقال مبنى الولاية ذاتها واصطدمت به . وفي تلك اللحظات خرجت خالة «البوعزيزي» من بين الجموع تندبه بصوت اقشعرت له الأبدان وبعبارة واحدة موجزة متكررة بإصرار :« وينكم ياهمامة». و عندما حل المساء ، أبدل الحشد حول مقر الولاية كلمة «التشغيل» بكلمة « التقاعد » في الهتاف الذي عرفته « سيدي بوزيد» قبل شهور خلال الصيف، فأصبح الشعار المتصاعد من حناجرهم :« التشغيل استحقاق يا عصابة السراق ». كما استعادوا شعار مناسبة قافلة الحرية :« يسقط نظام السابع يسقط عميل تابع ».

وأضافوا إلى هذا وذاك شعارات أخرى أكثر جرأة ومباشرة من قبيل: « ولد العامل والفلاح أقوى منك يا سفاح (المقصود « بن علي ») ، و« يسقط حزب الدستور .. يسقط جلاد الشعب ». وأسقط في يد الوالي . وحينها كان عليه استدعاء تعزيزات أمنية إلى المدينة . وبحلول الغروب شوهدت قوافل من السيارات السوداء لفض الشغب آتية من ناحية ولايتي « القصرين » و « قفصة » المجاورتين لولاية « سيدي بوزيد» . ومع ذلك ظل الحشد المتجمع أمام مقر الولاية مرابضا هناك حتى منتصف الليل في عز البرد . قبلها خرج الوالي « مراد » محاولا التفاوض . لكنه كان قد تأخر أكثر من اللازم. فقد كان عليه في نظر الجمهور الغاضب أن يخرج بالأحرى في الصباح لسماع صيحات « البوعزيزي » المستنجدة قبل أن يقدم على إحراق نفسه ويجرى نقله إلى مستشفى المدينة الذي يطلق عليه أهلها تندرا على بؤس حاله « المدفن » (لاحقا جرى نقله إلى مستشفى بصفاقس قبل أن يتوفي في ٥ يناير في الرواية الرسمية و٢ يناير في الرواية الشعبية الأكثر شيوعا ، والتي تتحدث عن استبقاء السلطات جثمانه لثلاثة أيام للترتيب لدفنه على نحو لا يثير المزيد من السخط بين أبناء جهته) .

وبحلول اليوم التالي (السبت ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ يوم السوق الأسبوعية في الولاية) توافد الفلاحون كعادتهم من المعتمديات (المراكز) الإحدى عشر الأخرى التي تضمها الولاية .ووقع الصدام العنيف مع القوات المستجلبة إلى عاصمة الولاية في نحو الساعة الحادية عشر صباحا . استخدمت القوات الغاز المسيل للدموع والهراوات . و لجأ المتظاهرون للرد بالحجارة وبإعادة قنابل الغاز .

وعندما انتقلت المواجهات إلى الشوارع الجانبية المتفرعة من الشارع الرئيسي بالمدينة وبعدما فقد المتظاهرون السيطرة على الساحة الأكبر أمام مبنى الولاية اكتشف المتظاهرون في عربات الخضار والفاكهة المشابهة لعربة « محمد البوعزيزي» سلاحا إضافيا . ببساطة وسرعة أخذوا يحركون هذه العربات لتسد الطرق وتعوق حركة سيارات الأمن . وفي نحو الساعة الخامسة بحلول المغرب وجد المتظاهرون هدفا لسخطهم في مقر الحزب الدستوري الحاكم الذي يقع في ذات الشارع الذي يطل عليه مبنى الولاية . فاجتاحوا المقر وحطموه وأحرقوا السيارات التابعة له . ولعل من مفارقات «سيدي بوزيد» العديدة أنها اشتهرت بأعلى نسبة انتساب لعضوية الحزب بين ولايات تونس . وعلما بأن عضوية الحزب في عموم تونس قدرت قبيل رحيل « بن علي » عن السلطة بنحو اثنين مليون عضو.. أي نحو خمس سكان البلاد بمن فيهم الأطفال.وكما قال «الأمين بوعزيزي» فإن المنتسبين للحزب الحاكم في ولاية « سيدي بوزيد» تقدر نسبتهم بنصف سكانها بمن فيهم الأطفال.ويعود ذلك الانخراط الكثيف إلى الأمل في الحصول على فرصة عمل أو أية مزايا معيشية كانت في ولاية تعد من الولايات الأكثر فقرا و معاناة من البطالة .

وبحلول ليل يوم السوق اتسع الغضب لينتقل إلى الأحياء الشعبية المحيطة بعاصمة الولاية . وأسفرت هجمات قوات الأمن على هذه الأحياء حينها عن سقوط جرحى و معتقلين من غير المعلوم عددهم .ومع صبيحة اليوم التالي ومع عودة قاصدي سوق « سيدي بو زيد » العاصمة إلى مدنهم و بلداتهم اتسعت الاحتجاجات في مختلف أنحاء الولاية .

لكن الحدث الأبرز في هذا اليوم (١٩ ديسمبر ٢٠١٠) كان هو اجتماع النشطاء السياسيين والنقابيين بالمدينة في مقهى « سمرقند » و أمام أعين الشرطة وتشكيلهم هيئة تنظيمية أطلقوا عليها « لجنة المواطنة والدفاع عن ضحايا التهميش بسيدي بوزيد» .وقد اختاروا ناطقا إعلاميا للجنة هو الدكتور « عمر زعطوري».وبحلول يوم ٢٠ ديسمبر، تصاعدت أحداث الاحتجاج في مركز معتمدية «المكناسي» التابعة للولاية والواقعة على بعد ٧٥ كيلوا مترا من عاصمتها . فقد أغلق الشباب ـ و معظمهم من العاطلين ـ الشارع الرئيسي بالمدينة ، و أوقفوا الحركة على خط السكك الحديدية بين ولاية قفصة الغنية بالفوسفات و بين تونس العاصمة مستخدمين ذات الأسلوب الذي جرى في انتفاضة «الحوض المنجمي ». ببساطة جلسوا فوق قضبان خط السكك الحديدية . و اعتصموا على هذا النحو . كما استهدف المحتجون في « المكناسي » تمثالا لحصان عربي في وسط المدينة رأوا في تشييده رمزا لإهدار المال العام ونهبه ، فحطموه.

وفي اليوم نفسه ، خرجت مسيرات حاشدة في معتمدية (مركز) ولاية « منزل بوزيان » على بعد ٣٠ كليوا مترا من عاصمة الولاية ، وذلك بمبادرة من النقابيين والنشطاء السياسيين بها . وتوالت الاحتجاجات للأيام التالية هناك تماما مثل عاصمة الولاية . لكن الحدث الأبرز كان سقوط أول شهداء الثورة بالرصاص الحي في «منزل بوزيان » يوم ٢٤ ديسمبر ٢٠٢٠ . وهما الشهيدان :« محمد العماري » و « شوقي حيدري» . وكلاهما جامعيان عاطلان عن العمل . وكان ذلك في يوم جمعة استهدف فيه أهل هذه المعتمدية حرق مركز للأمن وتمكنوا في النهاية مما أرادوا . و يؤرخ « الأمين بوعزيزي» و«عبد السلام الحديوري» بهذا الحدث لانتقال العنف الثوري إلى استهداف

مراكز الدولة السيادية بعد استهداف مقار الحزب الحاكم .

وبعدها بساعات وعلى بعد ٤٠ كيلوا مترا من مدينة « سيدي بوزيد» وفي اليوم ذاته ـ لكن بحلول الليل ـ تحولت المظاهرات في مركز معتمدية « الرقاب » من طابعها المسالم إلى عنف ثوري أحرق مركز الشرطة ومقر المحكمة . وعلى مدى سبعة أيام تالية سقط في «الرقاب » وحدها ستة شهداء. وعلى صعيد شعارات المظاهرات في مختلف أنحاء الولاية حدث تطور لافت في هذا اليوم (٢٤ ديسمبر) حيث أضيفت شعارات سياسية بامتياز تهاجم «زين العابدين » في مقتل إلى جانب تلك الاقتصادية الاجتماعية التي غلبت على مدى الأيام التسع السابقة من اندلاع الثورة . شعارات تمس عائلة زوجة الرئيس «ليلي الطرابلسي » ، وذلك من قبيل :« لا للطرابلسية اللي سرقوا الميزانية » .. و« يا طرابلسي يا حقير خللي الخبز للفقير ».

نحو تسعة أيام حملت خلالها ولاية « سيدي بوزيد» الثورة بمفردها إلى حد كبير . بعدها انتشرت الأحداث في الولايات المجاورة .انتقلت في البداية إلى ولاية «القصرين» الذين اتضح مع تطور الأحداث لاحقا أنها قدمت أكبر عدد من شهداء الثورة (٧٣ شهيدا) . وهنا لعب الإعلام البديل دوره لكسر التعتيم والحصار الذي يفرضهما الإعلام الرسمي على الأحداث داخل تونس . وببساطة تحول شباب من النقابيين القاعديين ومن طلاب الجامعات والمدارس الثانوية إلى صحفيين و مذيعين ومصورين ميدانيين في خدمة الثورة. يبثون أنباءها ووقائعها حية صادقة بالصورة والصوت والكلمة من تلك الولايات القصية إلى مختلف أنحاء تونس وإلى عاصمتها . وتناقلت قنوات فضائية مقاطع « اليو تيوب » المصورة من داخل هذه الولايات وبثتها «الجزيرة » و«فرنسا ٢٤ »باللغة العربية في نشراتها الإخبارية نقلا عن صفحات « الفيس بوك ».

وفي اليوم التالي ٢٥ ديسمبر وتحت وقع الضغوط القاعدية على قيادة اتحاد الشغل في ولاية « سيدي بوزيد» تمكن النقابيون الثوريون من إصدار بيان يدعو للإضراب العام في الولاية . وبالفعل جرى تنفيذه بدرجات متفاوتة من النجاح في معتمدياتها الإثنتي عشر مع أن البيروقراطية النقابية في القمة رفضت المصادقة على هذا البيان واختارت طريق التفاوض مع الوالي . لكن الأحداث خارج الولاية اكتسبت زخما أقوى وبريقا ألمع والى حد أن العديد من نشطاء الاحتجاج في الولاية كانوا يتنقلون إلى المدن الأكبر والأكثر تأثيرا على السياسة العامة كصفاقس وتونس العاصمة للمشاركة في أنشطتها الثورية ،وصولا إلي الحدثين الأكبر الإضراب العام والمظاهرات والمواجهات في المدينة الصناعية والتجارية الأهم «صفاقس » يوم ١٣ يناير و الاحتشاد في شارع «الحبيب بورقيبة» انطلاقا من ساحة المقر العام لاتحاد الشغل بشارع « محمد على الحامي » المتفرع منه إلى أمام مقر وزارة القمع « الداخلية » في شارع « بورقيبة » ذاته يوم ١٤ يناير ٢٠١١.وهو اليوم الذي انتهى بإعلان فرار « بن على».

كان الخطاب الثالث والأخير لـ « بن على » أثناء أحداث الثورة هو ذلك الذي ألقاه مساء يوم ١٣ يناير ٢٠١١ وقد غير من لهجته تماما . تحدث للمرة الأولى باللهجة التونسية العامية بدلا من العربية الفصحي كما أعتاد في خطاباته السابقة منذ توليه الحكم عام ١٩٨٧ . وبدلا من تكراره الوعيد في خطابيه السابقين (٢٨ ديسمبر و ١٠ يناير) بتنفيذ القانون بحزم وحسم قال : « يزي من كرطوش».. أي « كفاية من الخرطوش » بالعامية المصرية . وبدلا من كيل الاتهامات لـ « أقلية من المتطرفين والمحرضين المأجورين ضد مصالح بلادهم » ولـ« التجني الإعلامي العدائي لتونس » ، قال :« غلطوني .. وفهمتكم » .. أي «أمدوني بمعلومات خاطئة و أدركت الآن الخطأ وفهمتكم » باللغة العربية الفصحي . وكان الخطاب الثالث على هذا النحو إشارة كي يقوم الحزب الحاكم بإنزال من تبقي من إتباعه للتظاهر تأييدا لـ « بن على » .

حدث هذا في ليلة يوم ١٣ ينـاير ٢٠١١ بشـارع «الحبيب بورقيبة» بالعاصمة تماما مثلما حدث بالشارع الرئيسي لمدينـة «سيدي بوزيد » فـي التوقيـت ذاتـه . وكمـا يقـول الراويـان « البوعزيزي » و« الحيدوري »: «جرى تعبئة بضع مئات من الأحيـاء الفقيـرة فـي محيط المدينـة فـي مهمـة مدفوعـة الأجـر . وتظاهروا في الشارع الرئيسي يهتفون باسم (بن علي) لنحو الساعة ثم انصرفوا . وفور أن انفضوا عاد الثوار ونزلـوا إلـى الشارع نفسه بالآلاف . وهذا ما حدث في مختلف مدن الولايـة . لم تتصد قوات الشرطة لهم . لأنهـا بـدت منهكـة ». ويضيفان « فـي صـبيحة اليـوم التـالي امـتلأ الشـارع الرئيسـي بعاصـمة الولاية بجموع من المتظـاهرين غيـر مسبوقة لا تعبأ بتواجد أجهـزة الأمـن وهـي تهتـف ضـد (بـن علـى) بهتـافين لافتـين انتشرا في عموم تونس ، وهمـا : خبـز ومـاء / بـن علـى لا» .. و«ارحل » .

وفـي ظـل هـذا الحشـد غيـر المسـبوق بمدينــة « سـيدي بوزيـد» بوصـف « الأمـين البـوعزيزي » و « عبـد السـلام الحيدوري » صبيحة ١٤ ينـاير ٢٠١١ أخذ المئات علـى مدي اليوم فـي الانتقـال إلـى تـونس العاصـمة للمشـاركة فـي الحـدث الأهم والألمع بشـارع « الحبيـب بورقيبـة » . وعنـدما أعلنـت شاشـات التليفزيونـات خبـر فـرار « بـن علـى» وتـولي رئـيس وزرائه « محمد الغنوشي » مهام منصبه تدافعت إلـى شـوارع عاصمة الولاية ومختلف مدنها المزيد من الجمـاهير . وشـابت الاحتفال احتجاجات على تولي « الغنوشـي » بوصـفه انقلابـا دسـتوريا ومنـاورة مـن « بـن علـى » . و بحلـول الأول مـن فبرايـر ٢٠١١ كـان شـباب « سـيدي بوزيـد » مـن بـين مـن تقـدموا الصـفوف للمشـاركة فـي اعتصـام القصـبة أمـام مقـر الحكومة في العاصـمة تـونس .وقد أطـاح بحكومـة « الغنوشـي »، الذي كان قد انتقل إلى موقع رئيس الوزراء مجددا بعد يوم واحد من رحيل «بـن علـى » تاركـا منصـب الـرئيس المؤقـت إلى « فؤاد المبزع » رئيس مجلس النواب بالأصل .

لكن ما حدث بعد مساء ١٤ ينـاير ٢٠١١ قصـة صـراع وكفـاح أخـرى لا مجـال لهـا فـي هـذا الكتيـب . و هـي بكـل المقاييس تخرج عن رواية ما جرى في « سيدي أبو زيد » خلال أيام الثورة على « بن على».

الخاتمة

هذه حكاية موجزة لما جرى في «سيدي بوزيد » ، وحيث ولدت شرارة ما يعتقد بأنه أكبر وأهم موجة ثورات في تاريخ العرب الحديث . وعلى كل أن يستخلص الدروس والعبر .

المؤلف

المصادر والمراجع

لقاءات :

ـ لقاء مع « الأمين بوعزيزي»و «عبد السلام الحيدوري » في مدينة « سيدي بوزيد» يوم ٢٦ أكتوبر ٢٠١١.

ـ لقاء مع « حد الزين عمامي » في تونس العاصمة يوم ٢٥ أكتوبر ٢٠١١.

ـ لقاء مع « عبير شقرون » في تونس العاصمة يوم ٢٤ سبتمبر ٢٠١١.

ـ لقاء مع « على شوشان » في تونس العاصمة ٢٤ سبتمبر ٢٠١١.

ـ لقاء مع « محسن زعطوري » في الطريق بين تونس العاصمة وسيدي بوزيد يوم ٢٦ أكتوبر ٢٠١١.

ـ لقاء مع الدكتور« محمد الحماص » في تونس العاصمة ٢٦ سبتمبر ٢٠١١.

ـ لقاء مع « نزيهة رجيبة » (أم زياد) في تونس العاصمة يوم ٢٧ سبتمبر ٢٠١١.

كتب:

ـ الأمين اليوسفي ، الحركة النقابية بتونس ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) ، ٢٠١١

ـ التهامي الهاني ، قمودة تاريخها وأعلامها ، تونس ، الطبعة الثانية ، جوان (يونيو) ٢٠٠٥ .

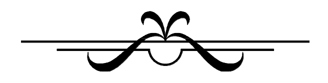
ـ الهادي التيمومي ، انتفاضة تالة والقصرين ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) الطبعة الثانية ، عام ٢٠١١.

- الهادي التيمومي ، تونس في التاريخ من جديد : ١٤ جانفي (يناير) ٢٠١١ ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) ، إبريل ٢٠١١.
- بشير الحامدي ، الحق في السلطة والثروة والديمقراطية قراءة في ثورة الحرية والكرامة ، تونس ، سبتمبر ٢٠١١.
- صالح المازفي ، الثورة والدولة : دعوة إلى فهم ثورة الكرامة ، دار المتوسطية للنشر ، ٢٠١١.
- د. علي المحجوبي ، النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر : لماذا فشلت في مصر وتونس ونجحت باليابان ؟، سراس للنشر (تونس) ، ١٩٩٩.
- كارم يحيى ، نظرتان على تونس بعين مصرية : من الديكتاتورية إلى الديمقراطية ، دار محمد على الحامي صفاقس (تونس) و دار الثقافة الجديدة، القاهرة (مصر) عام ٢٠١٢.
- محسن البوعزيزي ، فرضيات في الثورة التونسية ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) ، ماي (مايو) ٢٠١١.
- محمد الحماص ، الاستعمار الفرنسي وقبائل الوسط والجنوب بالبلاد التونسية ١٨٨١ - ١٩٥٠ ، مركز النشر الجامعي ، تونس ، الطبعة الثانية ، عام ٢٠٠٨.
- محمد بوقرة ، أحداث إفريل (إبريل) ١٩٣٨ ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) ، ماي (مايو) ٢٠١١.
- نزار شقرون ، رواية الثورة التونسية ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) ، ٢٠١١.
- نجيب العكرمي ، الانتفاضات في تونس ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) ، ماي (مايو) ٢٠١١.

ـ نجيب بن مرعي ، أحداث جانفي (ينـاير) ١٩٧٨ ، دار محمـد علـى الحـامي ، صـفاقس (تـونس) ، مـاي (مـايو)٢٠١١.

ـ نيكولا وجان بيار تيكوا ، صديقنا الجنـرال زيـن العابـدين بن علي: وجه المعجزة التونسية الحقيقـي ، ترجمـة زيـاد منـى ، دار قدمس للنشر والتوزيع ، دمشق ، الطبعـة الأولـى ، عـام ٢٠٠٥.

ـ يامن أحمد حمدي ، انتفاضة على بن غذاهم ، دار محمد على الحامي ، صفاقس (تونس) ، ماي (مايو) ٢٠١١.



السيرة الذاتية

كارم يحيى:

ـ تخرج في كلية الإعلام جامعة القاهرة (قسم صحافة) عام ١٩٨٠ .

ـ كاتب صحفي مصري يعمل بجريدة «الأهرام » حاليا. نشر منذ بداية عقد الثمانينيات دراسات ومقالات في العديد من الصحف والمجلات العربية والدولية.ومن بين هذه الدوريات «الطليعة » المصرية و « اليوم السابع » من باريس و« الآداب » البيروتية و«دراسات فلسطينية » باللغتين الفرنسية والإنجليزية. كما عمل مراسلا لصحيفتي « الحوار » اللبنانية و «الوقت » البحرينية.

ــ شارك في تأسيس حركة «صحفيون من أجل التغيير»بالقاهرة عام ٢٠٠٥، وجرى انتخابه أول منسق عام لها .

صدر له :

ـ الصندوق الأسود : قصة حسين سالم ، من القاهرة عام ٢٠١٢.

ــ « نظرتان على تونس : من الديكتاتورية إلى الديمقراطية »في طبعتين من القاهرة وتونس عام ٢٠١٢.

ــ « حرية على الهامش : في نقد أحوال الصحافة المصرية » من القاهرة عام ٢٠٠٥ .وعام ٢٠١٢ .

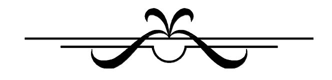
ـ « رهان المليون السابع : اليهود والهجرة الصهيونية حتى عام ٢٠٢٠» من القاهرة عام ٢٠٠٢ ومن دمشق عام ٢٠٠٦.

ـ شارك في تأليف « موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية » للدكتور «عبد الوهاب المسيري» الصادرة من القاهرة عام ١٩٩٩ ، و « مظاهرات حرية الصحافة ١٩٠٩ : كتاب تذكاري توثيقي » من القاهرة عام ٢٠٠٩ .و « القضية أ . ب : كيف استعدنا ضمانة ديمقراطية لانتخابات نقابة الصحفيين ؟» من القاهرة عام ٢٠٠٧.

ويصدر له قريبا :

ـ « تمرد في الثكنة : عن ثورة ٢٥ يناير والصحافة المصرية » .

- « ورق A 4 : مقالات الثورة وميدان التحرير».



فهرس الكتاب